على صخرةٍ، بين سنديانتين، ينكسر الضوء. تَفْتح الوريقات كُوّةً للشمس كي تهبط أكثر إلى قاع رحلتها. تراقب، من بعيد، حوارَ الطبيعة الجاري بين فوقٍ وتَحت، كأنك تقرأ في كتاب المطالعة كيف سيخْرُج الجنّيُّ من ليل الأميرةِ. للطبيعة فتنتُها، ولك الانبهارُ مفردةٌ في قاموس الاكتشاف. تتطلع من حولِكَ إلى ما حولَكَ من نثْرٍ إلهيّ. ما زلتَ صغيراً لتَعْرِف كيف

تسأل عن المُدْهش المترامي في الأطراف. سنديانتان وضوءٌ وصخرةٌ وعينان تراقبان، كأن المكان يَكْثُر في طفولتك، ومن حفيف دهشتك يُولَدُ الزمان.

على صخرةٍ، تشاكسُها رقصةُ غُصْنَيْن على إيقاع الريح، تجلسُ، وتُجيل الانبهار في مقتنَيات البصر. وتسأل: ماذا لو أن الشمس مالت قليلاً نحو اليمين ليكون المشهد أجمل؟. ماذا لو صار للصخرة جناحان؟ ماذا لو غرفْتَ أنت من الضوء ما تَسَعُ راحتاك لِتَصُبَّه على حجَرٍ جائع للدفء؟ وماذا لو لكَ وُسْعٌ لتُزحْزِحَ الصخرة، قليلاً، عن سجنها؟ تطلق الخيال من محبِسِهِ، وتمضي في لعبة البعيدِ بعيداً.

على صخرةٍ، بين سنديانتيْن، ينكسرُ الضوء عليك جَمْراً، وينحدر الظلُّ إلى آخرِ الانتظار المُشْمِس. يمضي الماء إلى الماء، ويترك خلفَه سلالةً تتعرَّى تحت الشمس، لتكبر. هناك تُفْرج الطبيعة عن مفاتنها جبلاً ونَهْراً، وتلقّنك أبجديةَ الجمال المدهِش، قبل أن تَعْبُر اللغةُ برزخ المعنى المبهمِ إلى العبارة، وتتَّسع المساحةُ للصمت المكتوب على ورقٍ، أو لجنونِ كلامٍ مُوحِش. وفي الطبيعة ما يطيب لَكَ، أو يَلِذُّ أن تحسبهُ متاعاً لا يُوهَبُ للآخرين. الفضاءُ الوسيعُ لكَ، ولأهلكَ؛ من مصرف الماء، على جانب الطريق

العام، حتى ظلال شجر الزيتون والمِشْمِش. وتَسيح في مملكتك الصغيرةِ لا تبالي بما يضيق به الخيالُ، وينثُرُهُ السؤال على جانبيْ طريقِ الإياب إلى الحمراء.

كلّ شيء في الحمراء يَبْهر، لكنّ الأخضرَ السحريَّ فيها أقلّ، رغم ما في حوض البيت من عزاء، وما في الخيال من متَّسع لتقليب الألوان على جهات القلب. هناك عشِقْتَ الأوَّلَ في البصر، وألِفْتَهُ دهرًا، ولازَمَك الحنين إلى ذكرى لقاءٍ لا تذكُرُه لاختلاط الصُّور على رأسك الصغير. وهناك وُلِدْتَ يوماً، في مساء مباغت، بعد أن جَلَتِ العساكرُ بأربعين شهراً، وارتفع الأذانُ يُعْلِن حقّ الجياع إلى رحمة الله في الإفطار. ووُلِدْتَ هادئاً من دون ضجيج، لأن أمَّك لم تشأ أن تَحْرم رعيَّتها من نعمة السماح الإلهي. لكنك لم تكبر هادئاً مثلما خرجْتَ يوم مولدك، ولم تنثر على طريقك ورد السكون. كنت كالمجنون حين يُجَنّ، لكن الطبيعة علمتْك الإصغاء إلى حكمتها.

تُولَد المدينة من أهلها، وتُشْبِهُهُم. والأهْلُ أسفارٌ من الأخبار تقيم في مكانِ تَقَاطُعِ النازحين. المدينةُ هِبَةَ القوافل بعد ظَعْنٍ طويل تغريها واحةٌ وماءٌ بالبقاء.

وحينها لابدّ من حجَرٍ أو اسمنتٍ أو طينٍ، لينتصر الانتجاع على الرحيل. وأهل المدينة طيبون، مَرِحون، ولا يطلبون من متاع الدنيا كثيراً. وهُمْ قلّما هُمْ يغضبون، وإن فعلوا، ينسون سريعاً، ويصفحون. المدينة من أهلها تكون، وأنتَ من المدينة واحدٌ من أهلكَ، تتلقَّن التعاليم، وتحاكي الكبار في الكلام، وتسلكُ طريقتهم في الدعابة. . . والسّلام.

ليس في الحمراء أسرار، خارج أسوار الطرق الصوفية؛ كل شيء فيها واضح كشمسها المتطرفة. وما فيها يكفيها لتكون مرآةً لداخلها المزركش بالكلام. في لسان أهلها لسعةٌ تشبه لسعة فلفل حادّ في اللعاب، إن جرَّبْتَ الملاسنة، ويغمُره كرمٌ فائضٌ في الوداعة لم يدوِّنْهُ كتاب. مَنْ يأتيها من خارجٍ ينسى مَنْبِتَهُ بعد يسيرِ ألفةٍ لا تطول؛ يتعلم في طرقاتها ما تقول الشمسُ للإسفلت عند انتصاف العام، وما يُرسل الجبلُ من زفيرِ بياضه في أوّله. يتدرّب، بين حدّيْن حادَّين على طاعة المكان، قبل أن يجرّب كيف يميز الواقعية من الفكاهة في أقاليم اللسان.

المدينةُ أهلُها حين يَكُونونَها وتَكُونُهُم، ويَلْبَس

التشابه شكلَ بياضٍ أبدي، والحمراء وقاطنوها اسطقسات لِمَا لا يتجزأ، لفضاءٍ من بشرٍ وحَجَرٍ يُعْلن التماهي بين الطبيعيتين في واحد. لا مكان للمتعدِّد إلّا في الخيال الخِصب حين يجمح، وفي الحمراء ما يَجْرح الحقيقَة في حقيقتها، ويُدبِر عن المقيَّدِ. وللمتعدِّد مجازٌ شعريٌّ في الحارات، وفي دروب لا تُغْلق الأفقَ على أحدٍ، سُلَّمٌ لِتَسلُّق الحكاية حتى آخر سطرٍ مطرَّزٍ بحريرٍ يُبَلِّلُهُ غمام القيامة.

في الحمراء كثيرٌ من الغرابة في وضوحها الذي لا يُحَدّ، تعتلي دَرَج الفضول المؤدّي إلى التلصُّص على داخلها، فتكتشف أن الظاهر والباطن توأمان في البصر، وأن ما يَخْفى عليك هو من مَزيداتِ ظنٍّ يَسْكُنُك. أنتَ وحدك غامضٌ في نفسك وإن بَدَوْتَ عادياً، تُجِنُّ الذي يجيء في الكلام مجئ البَوْح كأنك تحمل سرّاً سماويّاً! وحين تُسْأل عما وراء السهوم في النظرة تفيء إلى الرَّوْغِ أو تَلُوذُ بالاعتذار عن عُسْر الكلام. وأنتَ أغربُ منها في الغرابة، وإن كنتَ منها صبيّاً يتدرَّج في الاكتشاف. وأنتَ لا تعرف إن كان ما بك خوفاً من المجهول، أو طريقةً بدائية في الاعتراف.

تكبر المدينة في مشْيَتِك، حين تخرُج من حدود الحيّ. تعاقر فِنَاءها الخارجيّ وراء السور، تحفظها شبراً شبراً كما تحفظ أسماء الجان المنثورة ليلاً على سَمْعك. تدرك، على التوّ، أن المكان أوْسعُ من صورته، وأصغر من فكرته. تبحث فيها عن أمكنة أخرى افتراضيةٍ، فلا تَجِدُ؛ فالأحياءُ عاديةٌ تماماً، وليس فيها ملعبٌ للخيال الطليق، ولا لفروسيةٍ تفتح المدى لنفسه. ولكلّ حيٍّ اسمُ سيّدِه يحتل مكان الوسط تحت قبة خضراء، يحيط بها فِنَاء، تتوسطهُ نافورة. ولكلِّ وليٍّ رعيَّةٌ من فقراء، ينْذرون له النذور، ويدورون حوله باحثين عن سلامٍ ضائعٍ في قُوَّهةِ ليالٍ لا يحصيها عددُ. وتبتعد من مُكانٍ حفظت دروبه، وأحصيتَ عدد الدكاكين فيه، ودقَّقْتَ في وجوه أهله، باحثاً عن وجهة اكتشاف أخرى تملأ فراغات الخيال حين يجمح فيك، ويأتيك منها مَدَدُ.

تتشابه الأمكنة داخل السور، كأن الذي بناها واحدُ. في بعضها صَخبٌ كثير، وفي البعض منها غضبُ. وينسحب الهدوء إلى داخل المسجد هارباً من الزحمة والتعب، وطالباً هجعة الروح إلى صاحبها. كم كنتَ شغوفاً بارتياد المساجد، واكتشاف الفروق بين السجادات وأصوات الأئمة، ونوافير الماء في أبهائها.

وكم كنتَ ترقُب من يعود إلى الحيّ، في آخر المساء، حاملاً أخبار معارك غيره، كي تقيس المسافةَ بين الأذن والعيْن. فأنت لم تَرَ ما يرى الراحلون إلى ما وراء الحيّ؛ كلّ شيء عاديّ حيث كنت قبل يومٍ أو قليلٍ. وليس لغيرك من دليلٍ على صدق الرواية سوى أنكَ لم تكن شاهداً على الحكاية. تعلّمتَ من حينها، أن لا تصدّق... إلّا أخبار الجان...، لأنك لا تملك أن تراهم، وإن أقاموا معك في البيت... وفي الرأس.

حين تبتعد عن المدينة، في عطلة مدرسية، تصاب بالكآبة، وبنزقٍ عصبي أكبر من أعوامك العشر. تفقد الشهيةَ للطعامِ، وللكلام، وتدرِّبُ نفسَك على انتظارٍ يفوق أصابعَ اليدين. المدينةُ أهلُها، وأهلُكَ زملاؤك في المدرسة، وقططٌ في البيت تخاف عليها من الإهمال. لكن عَزاءَكَ في الغياب أن الصيف شديد الحرارة، وأن العقاربَ كالذباب حين تشم رائحة الطين المبلَّل في المساء.

الصيفُ مُؤذٍ بالصهد والحشرات، وضيق التنفّس، والخمول، وارتخاء العضلات. لكنه مريحٌ من يقْظةِ الصباح المبكّرة، ومن واجب الوقوف في الصفّ على باب القسم في المدرسة. كتابٌ في البيت، على

استلقاءٍ، يكون أجمل. وأجمل منه، في آخر الليل، وجبةُ الخرافة. هناك يتسع الخيال للمُحال، ويكبر عالمُك على المرئيِّ، والمرميِّ على قارعة الطريق.

كنتَ تسأل كثيراً عن كل شيء، وتزعج بأسئلتك المعلّم. وكنتَ تحمل السؤال عن رأسك، أخيراً، مُذ تعلمتَ كيف تبحث عن معنى مفردةٍ في «المُنْجِد». وقرَّرْتَ، وحدك، أنه لا يليق بك أن تسأل غيرَك عن حيرةٍ تنتابك من أشياء غامضةٍ، وعزمْتَ على فَلْقِ المبْهَم بكتابٍ أو كتابيْن، لكن النّظم يشدُّكَ إليه، فتخرج من التجربة صِفْرَ اليديْن.

مَن أوْلَعك بالأوزان، وأنت من الصِّغَر في ريعان؟ أَلِأَنَّ في القصيدة إيقاعَ أغنيةٍ مَرِحًا، أم لأنّ الكلمات فيها تتحرك راقصةً فترقِّصُ داخلاً منشرحاً؟ لعلّه الغناء زفّ لك القصيدةَ وأنت نائم. ولعلك تدري أن الشعر يروّض اللغة على التحليق بعيداً، فتنام ثانيةً على يقينٍ دائم.

تُخْطِئُ الطريقَ إلى الشعرِ، في طريقك إلى المدرسة؛ تترك الخيال في البيت، لينام قليلاً، ويُشفى من الأرق. تمشي بخفةٍ لا تناسب ساعات نومك،

كأنك محمول على ريح بجناحيْن. مازال في العينين بعضُ دبيب نومٍ، وطنينٌ في الأذنين. لكنك تمشي بخفّةٍ إلى موعدٍ لم تضربه مع أحد، ولا مفرّ لك منه إلّا يوم الأحد. تمسي شاعراً، وتصبح واقعيّاً، وليس بين اللحظتين غير قليلٍ وقتٍ وَوَجبةٍ من النوم شحيحة. تدرِّب الخيال على الترجُّل عن صهوته، والتواضُع في طِلْبَتِهِ لئلّا يَمْرض أكثر.

يفيض عمرك عن الابتدائية فينقلوك إلى غيرها، لكنك لم تلمس فيها الفارق بين المعلّم والأستاذ؛ فالإثنان، معاً، على غير ما ظننتَ، أقلُّ جاذبيةً من الكتاب. تعاقر ليلك وشِعْرك، وتعتذر عن عدم الإصغاء إلى ما يُلقينَ ليلاً على مسمعك. فأنتَ بتَّ تقرف من تكرار حكايات الليل. لديك اليوم، ما يشدّك أكثر، ما يجعل الرأس يرخي عنانه ويُسْرج الخيْل. المدى واسعٌ أمام الرحلة، والشخوص من ذهبٍ ولَحْم، وأنت تصادفهم كلّ يومٍ على قارعةِ كتاب. تحفظ الأسماء والأحداث وتواريخ الميلاد، لأنك تهيّئ الذاكرة لاختبار الخصوبة، ولا تنسى أن تعيد على هزيع ليلك ما في المِزْوَدَة من المحفوظات.

الحيّ والمدرسة تياران يتجاذبان نهارَك، وللبيت ليْلٌ يحرُس عرشَه. الأصدقاءُ كثر، لكن أكثرهم

طارئون، وقليلٌ منهم يستحق خبزَكِ المدرسيَ الفائضَ عن حاجتك. والمغامرات قليلةٌ لخوفٍ فيك من الإقدام، لكن الأفلام تستهويك حين تستعرض آيات البطولة، وتحرِّك شيئاً من فروسيةٍ دفينة في نفسك. وليس لأهلك عليكِ سلطانٌ في أن تذهب إلى ملعبٍ أو سينما، مادام في البيت جدَّةٌ تحمي الصّبا ممّا يمنعه من التفتُّق، وتستعجلك لوداع الطفولة.

المدينة ملعبُك الخارجي، وحديقةُ خيالك، وشهوةٌ تدعوك إلى الترحُّل في المكان. لا مكان إلّا ما تشيِّدُهُ عيناك وتعمِّرهُ يداك في أحلام اليقْظة، في الصبح والعشية، حين تخلد الى نفسك؛ كم من حيٍّ أعَدْتَ تصميمه؛ ففتحتَ فيه دروباً مغلقة، ووسعتَ في مَا بين حائطيْ ممرّات ضيّقة، ونشرتَ حدائق في ساحات أهملها العابرون منها إلى مساكنهم. مدينتُك بَنَيْتَها بنفسك، مثلما تشتهي؛ رَصَفْتَهَا حجراً حجراً، أجريْت الينابيع فيها، فتَحْتَ الطرق، وأخرجْتَ سور المدينة عن السور ليدخل الهواء أكثر. وسَّعت حيّاً وضيَّقتَ آخر، ورفَعْتَ مئذنةً هنا، لتكون قامتُها بالأهل أجدر. ثم أكمَلْتَ الذي بدأتَ، فطليتها بالأحمر. ونظَّمتَ المرور لئلّا تختنق الريحُ في الزحمة، ويضيع حقُّ الراجلين. المدينةُ ما صنَعْتَ

لنفسك من صُوَرٍ تُؤنِسُ وحشة الفراغ، وتُبَدِّدُ الرتابة في المقلتيْن. المدينةُ ما ترك القدامى من آثار أقدامهم، وما دَوَّن الأحفاد عن البلاد في جملتين. المدينةُ أهلُها، وأنتَ منهم، فمَن سَيُغْنيك عنها، ومن سيُغْنيك عنهم؟